

آفاق المشي الأربعيني  
في فتح مجالات جديدة للعلوم الاجتماعية  
تأملات في النظرة اليوتوبية للزيارة

أ.د. محمد رضا قائمي نيك  
جامعة الرضوية للعلوم الإسلامية، مشهد، إيران

شيخ أحمد ناصري  
[ghaeminik@razavi.ac.ir](mailto:ghaeminik@razavi.ac.ir)

## الملخص

مع ازدهار وانتشار مسيرة الأربعين الحسيني في العراق منذ أوائل عقد ١٤٣٠ هـ (الموافق للعقد التسعيني من القرن الرابع عشر الشمسي) ولا سيّما مع مشاركة الزوّار من بلدان مختلفة وعلى رأسها إيران، أصبح هذا الحدث الاجتماعي العظيم محلّ اهتمام علماء الاجتماع. ومن بين الوجوه المهمّة لهذا الحدث، الوجه الطوباوي الذي يتّصل بمستقبل العالم الإسلامي. غير أنّ النظريات الغربية في العلوم الاجتماعية بسبب طابعها العلماني تفتقر إلى القدرة على تحليل هذا البعد الطوباوي الديني، الذي يرتبط غالباً بعصر ظهور الإمام المهدي عليه السلام أو بتكوين الحضارة الإسلامية الحديثة أو بتحقيق الأمة الإسلامية الواحدة. تسعى هذه المقالة إلى كشف الطبيعة العلمانية للنظريات الغربية في العلوم الاجتماعية من خلال دراسة أسسها الفكرية وارتباطها بمفهوم التقدم (Progress) وفكرة الطوبى (Utopia). ومن ثمّ تنتقل إلى بحث موقع الزيارة في التشيع وتبيّن قابليّتها لصناعة الطوبى. وبعد ذلك وتأكيداً على بعض الدراسات الميدانية حول مسيرة الأربعين، تُظهر المقالة أنّ هذه المسيرة بإمكانها أن تفتح آفاقاً جديدة للتنظير في العلوم الاجتماعية الدينية داخل العالم الإسلامي. وتُعدّ مفاهيم مثل الأخوة والضيافة والارتباط الوجداني بالولاية والتمهيد لظهور الإمام المهدي عليه السلام والعدالة العالمية والإيثار والاستشهاد، من أبرز المفاهيم التجلّية في أجواء هذه المسيرة والتي توفّر أرضية خصبة لبناء نظريات اجتماعية ذات طابع ديني. الكلمات المفتاحية: مسيرة الأربعين، الطوبى، العلوم الاجتماعية، فكرة التقدم، العلمانية.

## Prospects of the Arbaeen Pilgrimage Walk in Opening New Horizons for the Social Sciences: Reflections on the Utopian Perspective of the Pilgrimage

Prof. Dr. Mohammad Reza Ghaemi Nik

Al-Razavi University of Islamic Sciences, Mashhad, Iran

Sheikh Ahmad Naseri

### Abstract:

Since the mid-fourth decade of the Solar Hijri calendar, Iranians have increasingly participated in the Arba'een pilgrimage, transforming this historical event into a true "collective phenomenon." This shift has sparked diverse sociological analyses, with two prominent perspectives emerging:

Questions about the compatibility of the social dimensions of this religious phenomenon with modern Western secular social sciences.

Interpretations framing the phenomenon as a step toward realizing modern Islamic civilization, a preparation for the era of Imam Mahdi's reappearance (may Allah hasten it), or a movement to build the Islamic nation, particularly in continuity with the Islamic Revolution.

While these perspectives offer epistemological insights, uncritical engagement with them may lead to misunderstandings, spiritual emptiness, or identity crises. Thus, there is a need to critically examine these views by theoretically comparing them—especially their social dimensions—with prevailing literature in modern sociology. This article represents a preliminary effort in this direction.

**Keywords:** Collective phenomenon, compassionate society, civilizational dimension, collective spiritual fulfillment, theoretical comparison.

مع توسّع ظاهرة المشي الأربعيني في العراق ولا سيّما منذ أوائل العقد الرابع عشر الهجري (١٤٣٠هـ) الموافق للعقد التسعيني من القرن الشمسي (١٣٩٠ش) وبمشاركة الحشود الغفيرة من الزوّار القادمين من مختلف البلدان ومنهم زوّار الجمهورية الإسلامية الإيرانية، تحوّلت هذه المسيرة إلى «ظاهرة اجتماعية كبرى» بكلّ ما تحملها الكلمة من معنى. حيث يجتمع عدد هائل من البشر بدوافع روحية وبمحورية محبة الإمام الحسين عليه السلام ليكونوا مجتمعاً موحّداً تستضيفه الأمة العراقية الكريمة.

هذه الحشود الهائلة على الرغم من كثافتها وتعدّدها تُظهر درجة عالية من الانسجام والتناغم الاجتماعي وتكاد تخلو من الظواهر السلبية والآفات الاجتماعية المعهودة في التجمعات البشرية الكبرى مثل النزاع والعنف والاعتداء والإدمان والتمييز والفقر والجوع والسرقة وغيرها. ففي حين تسعى النظريات الاجتماعية عادةً إلى تفسير هذه الآفات ومحاوله معالجتها في المجتمعات البشرية نرى في هذا المجتمع الزائر بحضور البعد الروحي القوي ليس فقط غياباً ملحوظاً لهذه المشكلات بل تحوّلاً لهذه المسيرة إلى ساحة للتزكية الروحية والتعافي النفسي ورسم ملامح مستقبل إنساني أفضل في إطار من الطوباوية (اليوتوبيا) الدينية.

وتتجلّى السمة الطوباوية لمسيرة الأربعين في حضور البعد الروحي العميق لهذا التجمع العظيم حيث تتكرّر تعبيرات مثل: «الاستعداد لعصر ظهور الإمام المهدي عليه السلام» أو «السير نحو بناء الأمة الإسلامية الواحدة» أو «تمهيد الطريق لتشكيل الحضارة الإسلامية الحديثة»، وغيرها من المفاهيم المعبرة عن بعدٍ مستقبليٍّ إيماني. كما ساهمت هذه الظاهرة الاجتماعية الكبرى في تعزيز وحدة الشعوب الشيعية

والإسلامية، بل فتحت الأبواب أمام مشاركة أتباع الديانات الأخرى كالمسيحية واليهودية ونحوها، مما أكسب هذه الظاهرة بعداً إنسانياً شاملاً لاقى اهتمام الباحثين والمفكرين في مجال العلوم الاجتماعية.

ومع ذلك، فإنّ العلوم الاجتماعية الغربية، بطابعها العلماني تنطلق من طوباويات مادية تختلف جذرياً عن اليوتوبيا الإسلامية الشيعية. وكما سيّضح لاحقاً، فإنّ هذه العلوم تستند إلى فكرة التقدّم (Progress) التي نشأت بديلاً عن مشيئة الله في الفكر المسيحي التقليدي وبدلاً من رجوع المسيح، أصبحت اليوتوبيا الغربية قائمة على تصوّرات الإنسان الحديث وإنجازاته الخيالية في العالم المادّي. ومن هنا، تواجه النظريات الاجتماعية الغربية تحديات كبيرة في تحليل مسيرة الأربعين وهو ما سنعرض له لاحقاً في متن المقال.

وانطلاقاً من هذه المقدّمة، سنتناول في البداية فكرة التقدّم في الفكر الغربي، لنكشف من خلالها عن الأسس العلمانية للنظريات الاجتماعية الغربية. ثمّ نتقل إلى تحليل البعد الطوباوي لزيارة الأربعين في الفكر الشيعي مستندين في ذلك إلى بعض الدراسات الميدانية. وفي الختام، سنبيّن كيف أنّ الطبيعة الدينية والمذهبية العميقة لزيارة الأربعين من جهة تشكّل تحدياً كبيراً أمام النظريات الغربية ومن جهة أخرى تفتح آفاقاً واسعة أمام المفكرين المسلمين والشيعية لتأسيس نظريات جديدة في العلوم الاجتماعية ذات طابع ديني وروحي.

وعليه، تحاول هذه الدراسة الإجابة عن الأسئلة التالية:

١. كيف تنتج النظريات الاجتماعية الغربية طوباوياتها العلمانية من خلال فكرة التقدّم؟
٢. ما هي إمكانيات الزيارة في الفكر الشيعي لصناعة طوبى دينية؟
٣. ما هي الآفاق التي تفتحها زيارة الأربعين أمام التنظير الطوباوي الشيعي والعلوم الاجتماعية الدينية؟

## الإطار المفاهيمي

تحاول هذه المقالة أن تُعرّف المفاهيم الأساسيّة في العلوم الاجتماعية الغربية من خلال عرض نظريّاتها الكبرى، ثمّ تقابلها بالمفاهيم الإسلامية والشيعيّة، مع تركيز خاص على زيارة الأربعين. ومع ذلك، فإنّ تقديم تعريفات موجزة للمفاهيم الآتية يسهم في تعزيز فهم المقالة.

فكرة التقدّم: تشير هذه الفكرة إلى بديل عن نظريّة المشيئة الإلهيّة المسيحية، حيث نشأت مع بزوغ العلوم الحديثة وامتدادها إلى علم التاريخ. وقد أصبحت هذه الفكرة بمثابة الأساس النظري للعلوم الاجتماعية الغربية، كما يتجلّى في أفكار مفكرين أمثال أوجست كونت، كارل ماركس وغيرهما.

نظريّة المشيئة الإلهيّة المسيحية: استناداً إلى التعاليم المسيحيّة، كانت هذه النظرية شائعة في العصور الوسطى وتصف مسار التاريخ الإنساني من لحظة خلق آدم (عليه السلام) إلى عودة المسيح (عليه السلام) في نهاية الزمان، حيث تؤدّي فكرة «الرجعة» دوراً محورياً في تفسيرها.

زيارة الأربعين ومسيرها: بحسب حديثٍ مروى عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام، فإنَّ زيارة الأربعين تُعدُّ من علامات المؤمن الخمس (الحسن، ١٤١٤، ص ٤٧٨) وتشير الروايات إلى أنَّ هذه الزيارة، منذ زمن بعيد، كانت تُؤدَّى مشياً على الأقدام نحو كربلاء. غير أنَّ مشاركة الإيرانيين في هذه المسيرة شهدت تصاعداً ملحوظاً منذ بداية عقد ١٣٩٠ هـ.ش، وهو ما توكَّد عليه هذه المقالة بوصفه مظهراً جديداً ومهماً.

الطابع العلماني للنظريات السوسولوجية الغربية في ضوء فكرة التقدّم

كما أُشير سابقاً، فإنَّ العلوم الاجتماعية الغربية - وخاصة علم الاجتماع - تتمتع بطابع علماني واضح ومن أبرز ما يدلُّ على هذا الطابع هو تأثير فكرة التقدّم الغربية في تشكُّل علم الاجتماع، كما سيُبحث لاحقاً.

## اولاً - تشكُّل علم الاجتماع من رحم السعي لتحقيق فكرة التقدّم

لقد نبّه عدد من الباحثين إلى كون «فكرة التقدّم» واحدة من الأركان الضرورية في تكوين العلوم الاجتماعية الغربية الحديثة، ومنهم: جورج كولينغود (١٣٨٤ هـ.ش)، كارل لويث (١٣٩٦ هـ.ش)، سيدني بولارد (١٣٥٦ هـ.ش)، أليكس كالينيكوس (١٣٧٣ هـ.ش)، إريك فوغلين (١٩٨٤ م)، وحتى كابلستون (١٣٨٠ هـ.ش). لقد برزت فكرة التقدّم منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، على يد مفكرين أمثال برودون، فيكو، فولتير، كوندورسيه، تورغو وغيرهم، الذين سعوا إلى نقل منطق العلوم الطبيعية الحديثة، كعلم الفيزياء وعلم الأحياء التطوري - الذي نظر له علماء مثل غاليليو، نيوتن، لامارك، وداروين - إلى ميدان علم التاريخ.

ومن هذا المنطلق، فإنّ المنازعات التي نشأت بين علماء كغاليليو والكنيسة المسيحية، والتي أدّت لاحقاً إلى تراجع سلطة الكنيسة لصالح هيمنة العلوم الطبيعية (إيان، ١٣٨٨) امتدّت أيضاً إلى ميدان التاريخ، كما حدث في الفلسفة السياسية أو الفلسفة الأولى، التي عبّر عنها فلاسفة أمثال جون لوك، توماس هوبز، رينيه ديكارت، باروخ سبينوزا وغيرهم.

وهكذا، تمّ تهميش النظرة المسيحية إلى التاريخ الإنساني والتي كانت تفسّر المسار التاريخي للإنسان -بدايةً، ووسطاً، ونهايةً- من خلال نظرية المشيئة الإلهية، ليتمّ استبدالها بفلسفات تاريخ علمانية حديثة. كما توضّح «النظرية الثلاثية المراحل» لأوجست كونت، مؤسس علم الاجتماع، فإنّ تشكّل هذا العلم جاء امتداداً لمنطق العلوم الوضعية كالفيزياء والبيولوجيا. وقد مثّلت هذه النظرية تجسيداً عملياً واجتماعياً لفكرة تطوّر وتقدّم البشرية من مرحلة لاهوتية وميتافيزيقية ماضية إلى المرحلة الوضعية الحديثة.

وبناءً عليه، فإنّ البشرية قد وصلت إلى العصر الوضعي من خلال مسيرة عقلانية وعلمية تطورية وأصبحت علم الاجتماع قمة العلوم الوضعية والمجتمع الحديث يمثل «التجسيد الفعلي» لهذا المسار التقدمي. وكما يقول لويث:

«إنّ فكرة التقدّم الزمني، ذلك التقدّم الذي يتحرّك نحو تحقيق الهدف النهائي في المستقبل، تُظهر أنّ الفلسفة الوضعية لدى كونت مشتقة من التفسير اللاهوتي للتاريخ بوصفه تاريخاً للخلاص وتحقق الوعد الإلهي. لكن الهدف العام من «دروس في الفلسفة الوضعية» هو إثبات أنّ التقدّم الأساسي للإنسانية نحو الكمال يتحقق من خلال السير المتصاعد لعقل الإنسان، وأنّ هذا التقدّم يصل إلى ذروته في حضارتنا الغربية» (كارل، ١٣٩٦، ٧٠).

وقد تبنّى إميل دوركهايم هذا التوجّه في إطار علمي جامعي، ليكرّس «الوضعية السوسولوجية» كمنهج علم الاجتماع، مدّعياً أنّ حلم التقدم قد تحقّق فعلاً في قالب علم الاجتماع الحديث وأنّ «قواعد المنهج السوسولوجي» كفيلة بتعميق هذا التحقّق.

ففي مؤلّفه «الأشكال الأولية للحياة الدينية» وبعد بحثه في تقسيم العمل وقواعد المنهج يقدّم دوركهايم علم الاجتماع كعلمٍ قادر على تقديم تفسير بديل عن نظرية الهبوط الإلهي للأديان في فهم أصل ومصير الحياة الإنسانية.

وبحسب رأيه: «إنّ التفسير الوحيد الذي يبدو مقبولاً عند الآخرين لفهم التباين بين العالم المادي والعالم اللاهوتي أو العقلي، هو فرضية هبوط آدم، إذ تفسّر جانبه المادي مقابل جانبه غير المادي. دعونا نسلّك طريقاً آخر. فبمجرّد أن نُقرّ بأنّ العقل فوق-شخصي أو فوق-فردى ليس سوى اسمٍ آخر للفكر الجمعي تزول غموضات المسألة لأنّ الفكر الجمعي لا يكون ممكناً إلا من خلال اجتماع الأفراد... وبكلمة، فإنّ وجود العنصر غير الشخصي في داخلنا إنّما يعود إلى وجود العنصر الاجتماعي فينا وهذا البعد الاجتماعي، بما أنّه يتضمّن التمثّلات والممارسات، فإنّ لا شخصيّة الفكر والعمل معاً تنبع منه» (إميل، ١٣٨٣، ٦١٨).

## ثانياً- تحقّق حلم التقدم في ضوء الثورة البروليتاريّة

يُعَدُّ النظام الرأسماليّ أحد أبرز تجلّيات فكرة التقدّم. ومن هذا المنطلق، فإنّ ماركس، على الرغم من كونه ناقداً لا ذعاً للنظام الرأسماليّ إلا أنّ نقده كان يهدف في حقيقته إلى تحقيق فكرة التقدّم في عالمٍ متجاوزٍ للرأسماليّة، عالمٍ لا يتحقّق إلا بثورة البروليتاريا.

ولفهم موقف ماركس على نحوٍ أعمق، لا بدّ من الوقوف عند رؤيته للعلاقة بين الدين والرأسماليّة، ومكانة هذا الدين في مشروعه اليوتوبياويّ الشيوعيّ. فبحسب ماركس، فإنّ من بين الأسباب التي حالت دون تحقّق المدينة الفاضلة الحديثة في ظلّ النظام الرأسماليّ، هو استمرار شكلٍ من أشكال التديّن في هذا النظام، وهو التديّن الذي اعتبره ماركس بمثابة «أفيون الشعوب» و«أنين المظلومين»، ممّا يجعله عائقاً أمام تحقيق الثورة البروليتاريّة.

يرى ماركس أنّ هذا الشكل من التديّن، سواء أكان يهودياً أم نصرانياً، ليس سوى «دينٍ مختصرٍ للرأسماليّة»، كما عبّر لويت (١٣٩٦ هـ: ٣٨)، وأنّه يشكّل غطاءً لاستمرارها. فالدين بحسب هذا المنظور، يُعزّز من بقاء النظام الرأسماليّ، كما في الشعار المعروف: «اكسبوا، اجمعوا، هذا هو شريعة موسى والأنبياء». وعليه فماركس، رغم انتقاده العنيف للرأسماليّة لا يرى إمكان تحقّق المدينة الفاضلة الشيوعيّة إلا بزوال كلّ أشكال التديّن.

ومع ذلك، فإنّ النظرية الثوريّة لدى ماركس، القائمة على وحدة جميع عمّال العالم لتحقيق الثورة البروليتاريّة، كما ورد في «البيان الشيوعيّ» تُعدّ - كما أشار كلٌّ من كارل لويت (١٣٩٦ هـ: ٣١) وجون ميلبانك (١٣٩٦ هـ: ٣٠٧) - دعوةً نبويّة ذات طابع دينيّ خفيّ. ف«المجتمع الأعلى الشيوعيّ سيكون بمثابة مملكة الله على الأرض، لكن بدون الله». وهذا هو الهدف المثاليّ الموعود والذي يُجسّد يوتوبيا مهديّة مسيحيّة في تاريخ ماركس (كارل، ١٣٩٦، ٣١).

## ثالثا - ماكس فيبر: الشك في التفاؤل بفكرة التقدم

بعد نقد ماركس للنظام الرأسماليّ، جاء ماكس فيبر ليعبر عن نوع من التردّد في قبول وعود الحداثة المتفائلة بفكرة التقدم، وإن كان في نهاية المطاف لم يجد مخرجا حاسما منها. ففيبر، سواء في تحليله لأصل الرأسمالية في الأخلاق البروتستانتية، وتأكيده على أنّ «العمل والعمل فقط هو الذي يُزيل الشكّ الدينيّ ويولد اليقين في رحمة الله لدى المؤمن» (ماكس، ١٣٨٤، ١٢٨)، أو في عرضه لنظرية العقلانية في العصر الحديث، يصوّر تحقّقاً لنوع من فكرة التقدم.

ويذهب فيبر إلى أنّ السلوك السائد في العالم الحديث هو «السلوك العقلانيّ المرتبط بالهدف» وأنّ «العقلانية الأدائية» قد حلّت محلّ السلوك العاطفيّ أو التقليديّ. ومع ذلك، فإنّ فيبر - بخلاف كُنت ودوركهيم - يُدرك أزمات هذا النمط من العقلانية ويُحذّر من مغبات النظام الرأسماليّ واصفاً إياه بـ«القفص الحديديّ».

هكذا، فإنّ التفاؤل الوضعيّ الذي ساد في أطروحات كُنت ودوركهيم بشأن تحقّق فكرة التقدم من خلال العلوم الاجتماعية، واجه تشكيكاً ونقداً من ماركس وفيبر، ما أدّى إلى بروز حالة من التردّد حيال تحقّق هذه الفكرة على أرض الواقع.

## رابعا - كارل مانهايم: إعادة صياغة التقدم على هيئة يوتوبيا

في النصف الثاني من القرن العشرين وبعد التشكيك في التفاؤل الحداثيّ بفكرة التقدم، جاءت محاولة لإعادة تأويل هذه الفكرة، لكن تحت مسمّى جديد، هو: «اليوتوبيا». كارل مانهايم، الذي صرّح بتأثيره العميق باثنين من مفكّري القرن التاسع عشر، هما ماركس ونيتشه (كارل م. ، ١٣٨٠، ٣٩٣) سعى إلى فتح آفاق جديدة نحو مستقبل العالم الحديث، آخذاً في الاعتبار التحذيرات والنقد الذي قدّمه هذان المفكران. فمع إقراره برؤية ماركس حول أنّ العالم الرأسماليّ غارق في أيديولوجيات طبقية، إلا أنّه لا يرى الحلّ في ثورة بروليتارية، بل في العودة إلى مفهوم «اليوتوبيا».

فكما أشار ماركس، فإنَّ الإنسان في المجتمع الحديث مغلوبٌ على أمره تحكمه الأيديولوجيا ولا يملك إرادة التغيير. إلا أنَّ مانهايم يرى أنَّ «الفكر اليوتوبياويّ يُمثل انعكاسًا لاكتشافٍ مضادٍّ للأيديولوجيا في ساحة التغيّرات الاجتماعية ويعبّر عن موقف أولئك الأفراد الذين يسعون إلى تغيير الواقع القائم» (كارل م. ، ١٣٨٠، ٨٠).

ومع أنَّ القوى اليوتوبياويّة في الماضي كانت متمثلة في علماء الطبيعة كغاليليو ونيوتن، فإنَّ مانهايم يرى أنَّ هذه الفئة ستظلُّ الفاعل الرئيس في التغيير المستقبليّ أيضًا. ومن هذا المنطلق، وعلى الرغم من نقده لبعض أوجه الحداثة، فإنّه يعود ليؤكد على دور العلماء ومنطق العلوم الطبيعيّة في التغيير، باعتبارهم محرّكي التقدّم، ولكن لا بوصفهم صانعي واقعٍ محقق، كما رأى كُنت أو دوركهايم، بل بوصفهم «قوة يوتوبياويّة» فاعلة في سبيل التغيير.

## خامسا - يوتوبيا التقدّم بديلاً عن الزيارة المسيحية

يشير كارل لويت في كتابه المعنى في التاريخ، ضمن مقارنته بين فكرة التقدّم في العالم الحديث وفلسفة التاريخ المسيحي عند أوغسطين، إلى أنَّ فكرة التقدّم في الحداثة نشأت بوصفها بديلاً عن مفهوم «الزيارة» في فلسفة التاريخ الأوغسطينية. إذ يرى أنَّ «تاريخ مدينة الله لا يتطابق مع تاريخ الإنسان، بل هو التاريخ الحقيقي الوحيد؛ ذلك التاريخ الذي يتحدّث عن الخلاص، وتقوم أحداثه على مسار الزيارة [أي زيارة الكنيسة]. ففي نظر أوغسطين وسائر المفكرين المسيحيين الأصيلين، لا تعني التقدّمية سوى الزيارة، تلك التي تُفضي في نهايتها إلى تحقق الغاية القصوى. فالكنيسة بوصفها زائرةً مدنية، تتصل، نظرًا لكفاءتها النسبية، بهدفٍ سامٍ أسمى، وتربط الهدف الإلهي بالأحداث الدنيوية» (كارل ل. ، ١٣٩٦، ٢١٠).

ومع ذلك، كما أُشير إليه في القسم الأوّل من البحث، يمكن إعادة تصوّر الزيارة بوصفها رواية يوتوبية بديلة عن فكرة التقدّم.

## الزيارة الشيعية: يوتوبيا ذات غاية وهدف جليين

لقد عرفنا في العالم الإسلامي والشيوعي منذ القدم ظاهرةً عريقة تُدعى «الزيارة». ويبدو أن الزيارة، لا سيّما حين تتجلى في هيئة حركةٍ جماعية كمسيرة الأربعين، يمكن أن تشكّل روايةً دينيةً لتعبير الإنسان عن سعيه للتحرّر من يومياته ومن صراعاته الإيديولوجية، وتمثل تصوّراً ليوتوبيا أو مدينة فاضلة.

ففي زيارة المعصومين (عليه السلام)، وإن كنا لا نمتلك اتصالاً مادياً مباشراً بحضورهم الجسدي، إلا أننا نستطيع عبرها أن نطرح تصوّراً ليوتوبيا يُصبح قابلاً للتحقق مع فرض حضورهم، خصوصاً في آخر الزمان.

ومع ذلك، فإنّ اليوتوبيا في المنظور الشيوعي، بوصفها زيارةً، تمتاز بسماتٍ تميّزها عن يوتوبيا التقدّم والعلوم الاجتماعية الغربية، ما يجعل من هذه الظاهرة أفقاً واعدداً لعلوم اجتماعية إسلامية مغايرة. وسوف نتناول هذا الموضوع من خلال حجتين رئيسيتين:

### أولاً - موقع الإمام المعصوم في عالم الخيال وصلته بالزيارة:

يرى الحكماء المسلمون، كأبي نصر الفارابي، أنّ المدينة الفاضلة - التي تُعدّ معادلاً لفكرة اليوتوبيا - تتأسّس على دور قوة التخيل لدى النبي. ويشرح الفارابي أنّ النبي، بوصفه «واضع الشرائع» و«الرئيس الأول» للمدينة الفاضلة (نصر، ١٣٨٩، ٩٢ - ٩٣)، يتصل بالعقل الفعّال، لا على طريقة الفيلسوف اليوناني ويتلقّى الحقائق منه، ثم يبني على أساسها المدينة الفاضلة ويواصل قيادتها. يقول الفارابي: «وهذا الإنسان هو الذي يُوحى إليه، فيكون الله تعالى يُوحى إليه بواسطة العقل الفعّال، فيفيض ما يفيض من الله إلى العقل الفعّال، ومنه إلى عقله المنفعل، بواسطة العقل المستفاد، ثم إلى قوته المتخيّلة؛ فيكون بما يفيض إلى عقله المنفعل حكيمًا وفيلسوفًا كامل العقل، وبما يفيض إلى قوته المتخيّلة نبياً منذراً» (نصر، ١٣٨٩، ١٢٥).

في الكوزمولوجيا الفارابية، يُعتبر «عالم البرزخ» في الوجود، و«قوة التخيل» في الإنسان، حدًا وسطًا بين العالم المحسوس والعالم المعقول. وكما يتحد عقل النبي المتصل مع العقل المنفصل، كذلك يتصل خياله المتصل بالخيال المنفصل. ولكن، كما يذكر هانري كوربان، فإنّ هذه القوة المتخيّلة تختلف عن imagination في الفكر الغربي الحديث، والتي شكّلت أساس اليوتوبيا الغربية.

ويشير الفارابي إلى أنّ قيادة المدينة الفاضلة بعد النبي تؤول إلى جماعة من البشر يشتركون في «نور واحد»، وهم الرؤساء الماثلون الذين يرمزون - بحسب الرؤية الشيعية - إلى الأئمة المعصومين، وهم خلفاء النبي في المدينة، والحفاظ على حياتها يتوقّف عليهم.

يقول: «فإن لم يُوجد إنسان بهذه الحال [أي النبي]، تُؤخذ الشرائع التي وضعها أولئك وتُدوّن وتُحفظ، وتُدار بها المدينة. ويكون الرئيس الذي يدير المدينة بهذه الشرائع المكتوبة والمأخوذة عن الأئمة الماضين هو «ملك السنّة» (نصر، ١٣٨٩، ٢٠٣). وبذلك يكون الإمام المعصوم في الفكر الشيعي محور إدارة المدينة الفاضلة أو يوتوبيا الفارابي.

وانطلاقًا من هذا التفريق بين النبي والفيلسوف اليوناني، فإنّ المدينة الفاضلة الفارابية تتشكّل على أساس قوّة التخيل وعالم البرزخ، وهي موطن اليوتوبيا في فكر الفلاسفة المسلمين، وهو ما يميّزها عن اليوتوبيا الغربية. وهذا العالم المتخيّل، الذي يُطابق عالم البرزخ، ويقع بين الدنيا والآخرة، هو المجال الذي يلتقي فيه أهل هذا العالم المادّي - المغمورين في الروتين اليومي - مع الأئمة في الفكر الشيعي، ويتواصلون معهم.

ففي هذا العالم الخيالي، تقع مشاهدات كبار أعلام التشييع للإمام الغائب. كما يؤكّد كوربان: «إنّ حكايات السهروردي، والقصاص الواردة في التراث الشيعي التي تروي بلوغ «أرض الإمام الغائب»، ليست خيالات باطلة أو رموزًا تمثيلية... بل لا

يُمكن إدراكها إلا عبر المخيِّلة، ولا تُعاش أحداثها إلا بوساطة الإدراك المخيالي»  
(هنري، ١٣٧٢، ٢٦٧) (مهدي، ١٣٩١، ٣٩٥).

فكون هذا العالم خياليًّا لا يعني نفي واقعيته، بل - بحسب كوربان - هو «عالمٌ حقيقي بالكمال، واقعيته لا تُدحض، بل إنَّها أشدَّ انسجامًا من الواقع التجريبي الذي ندركه بالحواس. وشهود هذا العالم، حين يعودون، يدركون تمامًا أنهم كانوا «في مكان آخر». ولا يجوز اعتقاد أنهم مصابون بانفصام الشخصية! فعالم الخيال متوارٍ خلف إدراكنا الحسي، ويجب البحث عنه خلف اليقين الظاهري للإدراك الحسي. لذا، لا يمكن نعت هذا العالم بـ«الخيالي» بالمعنى الشائع للكلمة أي غير الواقعي والمتقلَّب»  
(هنري، ١٣٧٢، ٢٦٨) (مهدي، ١٣٩١، ٣٩٥-٣٩٦).

وإلى جانب هذا التفسير الفلسفي، تؤكد بعض الروايات أيضاً أن مجال تواصل الإنسان مع الأئمة يقع في هذا العالم.

فعن الإمام الحسن المجتبي (عليه السلام) في يوم استشهد أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال:  
«لو طُفتم من جابلقا إلى جابلسا، فلن تجدوا ابن نبي غيري وغير أخي الحسين»  
(منصور، ١٤٠٣، ٣٠٠). وجابلقا وجابلسا مدينتان في عالم البرزخ، لا تُدرَكان إلا بقوة التخيل، غير أن ذلك لا يعني أنهما مدينتان موهومتان، بل هما محط رحال الأئمة ومكان حضورهم. وعليه، فإنَّ هذا المجال الذي يُعدُّ «يوتوبيا المدن»، هو في الحقيقة أصدق من المدن المحسوسة. وهذا المجال الخيالي، وإن أُطلق عليه «اللامكان»، فهو في الرؤية الشيعية - ليس «لا مكاناً»، بل هو «كل مكان».

وبعد ما ثبت أن هذا العالم الخيالي هو مجال حضور الأئمة، ينبغي الالتفات إلى أن «الزيارة» هي المسار الأهم لبلوغ ذلك الحضور، وسبيل الارتباط بالإمام المعصوم.

في زيارة سرداب الإمام المهدي عليه السلام ، نقرأ: «يا صاحب الزمان عليه السلام»، لقد قطعت عن كل الأحبة في طريق وصالك، وهاجرت عن وطني من أجل زيارتك، وخفيت أمري عن أهل البلد، رجاء أن تكون شفيعي عند ربّي وربّك». ومن منظور يوتوبي، فإنّ ترك الوطن والمدينة يُعدّ فعلاً يوتوبياً للتحرر من العالم اليومي، سعياً لبلوغ عالم آخر.

لكن هذه التجربة - كما تصفها الزيارة - ليست انفصلاً عن الواقع أو خوضاً في الخيال، بل هي تجربة لعالم أكثر واقعية من المدينة الملموسة، لأنّ الحقيقة العليا للوجود، بحسب الفكر الشيعي، هي الإمام المعصوم. وأما حياتنا اليومية فهي محجوبة بتراكم الحجب التي تمنعنا من إدراك هذه الحقيقة. فالزيارة، التي تعني في عمقها «حضور المزور لدى الزائر»، هي السبيل الأوثق والأسهل لبلوغ حقيقة الوجود. وهذا اللقاء، وإن تم بالجسد، فإنّ حقيقته تقع في عالم الخيال والمثال، حيث يرى الزائر أنّ المزور أقرب إليه من نفسه، يسمع نداؤه، ويردّ سلامه، ويعلم بحاله أكثر من علمه هو بها.

## ثانياً - فكرة التجلّي والظهور مقابل فكرة الحلول والتجسّد

يرى هانري كوربان، في حوارهِ مع العلامة الطباطبائي (قدّس سرّه)، أنّ فكرة التقدّم نشأت كردّ فعل على النظرة الحلولية المسيحية ما أدّى إلى بلورة فكرة التقدّم بصيغة علمنة في العالم الحديث (حسين، ١٣٨٠، ١٤٢). ويُقابل العلامة ذلك بنظرة شيعيّة تؤكّد على فكرة التجلّي والظهور المتصلة بالمعصومين عليهم السلام. ومن منطلق ما تحدّثنا عنه في هذا البحث، وبالنظر إلى تأثير فكرة التقدّم في نشأة العلوم الاجتماعية الغربية، يمكن النظر في كيفية تأثير الزيارة - بوصفها بديلاً - على تأسيس نظرية اجتماعية إسلامية-إيرانية.

وكما سلّط مانهايم الضوء عليه، فإن نقد ماركس للنظام الرأسمالي أوضح أن تحقيق الواقع المثالي في هذا النظام غير ممكن فعلياً وإنما يمكن تصور فكرة التقدّم ضمن إطار يوتوبي يتضمّن تحولاً اجتماعياً. ومن هذه الزاوية - ومع التمايز بين اليوتوبيا الغربية والزيارة الشيعية - يبدو أنّ زيارة الأربعين قد تكون وسيلة لإحداث تغيير مجتمعي وسلوكي. وبما أنّ تحقيق المجتمع المثالي الشيعي مرتبط بظهور الإمام المعصوم (عليه السلام) في آخر الزمان، فمن الواضح أن تناول سير الأربعين كتحقّق فعلي لمدينة فاضلة شيعية ليس دقيقاً، بل ينبغي النظر إليها كوضع يوتوبي يتطلّع للوصول إلى تلك المدينة.

اليوتوبيا (Utopia) مشتقة من الكلمتين اليونانيتين U و topos، بمعنى «اللا-مكان» أو «اللامكان»، وهو حالة تفتقر عن الواقع المكاني الحالي، وتجربة الانتقال إليه تفتح للإنسان آفاقاً جديدة.

وفي اليوتوبيات الغربية الحديثة، فإن الغاية النهائية والقوة المبذولة لتحقيقها والمكان أو الزمن الذي تتحقّق فيه، جميعها تصوّرات دنيوية، كما أنها تُبنى على أفكار المفكرين أنفسهم. فقد تتحقّق في قمة النظام الهغلي أو تعقد من خلال ثورة بوليتارية وشيوعية.

في المقابل، فإنّ المجتمع المثالي في الرؤية الشيعية يُبنى على حضور الإمام المعصوم وهو نور واحد. هذا التحقّق موصوف في نصوص الأحاديث الشريفة، وإن كان التأسيس العملي لهذا المجتمع يعتمد على الجهود المشتركة للزائرين والمصلحين. فالإمام، سواء في حضوره أو غيبته يردُّ على سلامه يسمع أصواتنا، ويفهم كلماتنا. وهو كائنٌ معصومٌ فردانيّ، عاش كالبشر الآخرين وسيرته يمكن أن تكون نموذج حياة للآخرين.

الزيارة - خصوصاً زيارة الأربعين الجماعية المتوجّهة نحو الإمام - بحسب المعتقد الشيعي محدودة وموجّهة نحو أشخاصٍ معينين وقادرة على إرشاد المؤمنين في عصر الغيبة ووقايتهم من سبل الضلال.

وبناءً عليه ترتبط الزيارة في الإسلام والتشيع ارتباطاً وثيقاً بزيارة الإمام المعصوم، وهي ظاهرة اجتماعية دينية، وإيَّها - في ظلَّ غيبة الإمام الزمان - ترتبط دوماً بيوتوبيا عصر الظهور. وهذا ما يجعل من أبرز مفردات زيارة الأربعين عنصر انتظار الظهور، كما جسّد ذلك المتحدّث المرشد للحكومة الإسلامية في إيران، آية الله السيد علي خامنئي، حين وصفها بأنها يمكن أن تمهّد الطريق نحو بناء حضارة إسلامية في العصر المعاصر (حسين، ١٣٨٠).

## لمحة على بعض الدراسات الميدانية

خلال السنوات الأخيرة، برزت العديد من الدراسات الاجتماعية الميدانية حول مسيرة الأربعين في العراق. وقد اعتمد بعض الباحثين على مقابلاتٍ مع الزائرين والسكان المحيطين بها لتحليل معتقداتهم وسلوكياتهم. وقد كشفت هذه الدراسات توليفة من القيم والممارسات التي انتشرت جماعياً بين الحاضرين، ومُثلت في الوقت نفسه دلائل على الطابع اليوتوبي للمشهد.

في دراسة زاهد غفّاري هسجين (١٤٠١هـ.ش) بعنوان: مكونات الولاء في مسيرة الأربعين ودورها في الحضارة الإسلامية الحديثة، سلّط الباحث الضوء على علاقات القلب بالولي وتعزيز ثقافة الإيثار والتضحية، الأخوة والمضيفية، تجاوز الانقسامات القومية واللغوية، ومناهضة الولاء للكفار ورفض الظلم ورؤية العدو وغيرها من المفاهيم ذات الطابع الأيديولوجي الأخلاقي. في بحثه سنة ١٤٠٢هـ.ش، توصل بهزاد قاسمي بعد مقابلاتٍ مع اثني عشر زائراً، إلى أربع محاور أساسية: وحدة الأمة الإسلامية، تأمين الأمن الشعبي تعزيز الروابط الثقافية-الحضارية ورؤية تمدنية ثورية.

أما علي أشرف هواسي (١٤٠٢هـ.ش) فقد لفت إلى مكونات تتعلق بالدبلوماسية الثقافية بين إيران والعراق وسائر الشعوب واعتبرها أدوات توحيدية. وفي دراسة تاج-بخش بين سنوات ١٣٩٥-١٤٠٣هـ.ش، خلُص إلى أن القوة الناعمة الإسلامية والتماسك الاجتماعي والنشاط المعنوي والإعلام والتجديد الأخلاقي والقيمي والقدرة على يوتوبيات المجتمع والبناء المكاني والفضائي وإعادة تأمل المعارف والأساليب الأسرية للأربعين، كلها مكونات يشير إليها الزائرون كدعامات لتشكيل أمة إسلامية موحدة. وأخيرًا، نظرت أكرم غروسي (١٤٠٣هـ.ش) في دراسة أنثروبولوجية إلى المشتركات الثقافية بين الإيرانيين والعراقيين خلال مسيرة الأربعين، ورأتها أرضية للوحدة بين الشيعيين.

## الخاتمة والنتائج

تُعدّ مسيرة الأربعين إحدى الظواهر الاجتماعية المتجذّرة في التاريخ العراقي، غير أنّها خلال العقدین الأخيرین شهدت مشاركة واسعة من الزوّار غير العراقيين، وخصوصاً الزوّار الإيرانيين. وقد أضفت العلاقة العميقة لهذه الظاهرة مع التعاليم الشيعية، لا سيّما الرابط الوثيق بين شهادة الإمام الحسين (عليه السلام) وظهور الإمام المهدي المنتظر (عجل الله فرجه)، عليها طابعاً يوتوبياً يتّصل بمستقبل التشيع والإسلام.

ومع ذلك، فإنّ النظريات الاجتماعية الغربية، بسبب طبيعتها العلمانية، غير قادرة على تحليل هذا البُعد اليوتوبّي الدينيّ لمسيرة الأربعين. ومن هذا المنطلق، سعت هذه المقالة، من خلال تسليط الضوء على مفهوم الزيارة في التشيع، والاستناد إلى الدراسات الميدانية المعاصرة، إلى بيان أهمّ العناصر التي يمكن أن تفتح آفاق التنظير الاجتماعي حول مسيرة الأربعين من منظور يوتوبّي.

إنّ هذه العناصر يمكن أن تؤدّي دوراً بالغ الأهمية في تحقيق وحدة الأمة الإسلامية، وبناء الحضارة الإسلامية الجديدة، والتمهيد لعصر ظهور الإمام المهدي (عجل الله فرجه). كما أنّها تفتح آفاقاً جديدة أمام العلوم الاجتماعية الدينية لصياغة نظريات أصيلة نابعة من صميم الواقع الديني والاجتماعي للمجتمع المسلم.

## المصادر

١. الحسن , ا. ا. (١٤١٤). وسائل الشيعة. قم: مؤسسة آل البيت عليه السلام.
٢. إميل , د. (١٣٨٣). الأشكال الأولية للحياة الدينية، ترجمة: باقر پرهام. طهران: دار ثالث.
٣. إيان , ب. (١٣٨٨). العلم والدين، ترجمة: بهاءالدين خرماهي. طهران: دار نشر الجامعة.
٤. حسين , ا. م. (١٣٨٠). الشيعة: حوار بين العلامة الطباطبائي وهنري كوربان. طهران: منشورات الحكمة.
٥. كارل , ل. (١٣٩٦). المعنى في التاريخ، ترجمة: سعيد حاجي ناصري وزانيار إبراهيمي. طهران: دار النشر العلمي والثقافي.
٦. كارل , م. (١٣٨٠هـ). الإيديولوجيا واليوتوبيا، ترجمة: فريبرز مجيدي. طهران: مركز سمت للنشر.
٧. ماكس , ف. (١٣٨٤). الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ترجمة: رشيدان. طهران: دار آگه.
٨. منصور , ا. ا. (١٤٠٣). الاحتجاج. مشهد: دار المرتضى.
٩. مهدي , ف. م. (١٣٩١). الوقوف على ضفة الموت الأخرى. طهران: دار نشر ني.
١٠. نصر , ا. أ. (١٣٨٩). السياسة المدنية، ترجمة وشرح: حسن ملك شاهي. طهران: منشورات سروش.
١١. هنري , ك. (١٣٧٢). عالم المثال، ترجمة: سيد محمد آويني. طهران: مجلة «نامه فرهنگ».
١٢. Voegelin, Eric (1984). History of Political Ideas, Vol. 8, Edited by David Walsh, Columbia and London: University of Missouri Press